منه، والله لم يأمر المسلمين بأن يحفظوا القرآن كله، ولا بأن يقرءوه كله، وإنِّما أمرهم أن يقرءوا ما تيسَّر منه؛ فأمَّا حفظه كله وقراءته كله، فيكفي أن ينهض بهما الذين تفقهوا في الدِّين؛ وكان يغتاظ حين يرى الزراية على الأمية والغض من الأميين، كان يرى في ذلك شيئًا من الإثم؛ لأنَّ النبي ﷺ كان أميًّا، ولأن العرب كانوا أميين، لم يُعابوا بذلك، ولم يغضَّ ذلك من قدرهم قليلًا ولا كثيرًا، ولم يكن يغني شيئًا أن يُقال للحاج عمران إنه ليس النبي، ولا شيئًا يشبه النبي من بعدُ، فإذا كانت أمية النبي آية له، فأميَّة الحاج عمران نقص فيه، وإنَّ العرب لم يُفاخروا قط بأميتهم، وإنما جاء النبي ليُخرجهم من هذه الأمية. لم يكن من المُفيد أن يُقال شيء من ذلك للحاج عمران؛ فإنَّه لم يكن يسمع له أو يلتفت إليه، وإنما استقرت هذه الآراء في نفسه لا تبرحها، وأقفل الأفق بينه وبين ما وراء هذه الآراء من المعاني والحقائق، فهو لا يتجاوزه ولا يعدوه، وكان ابنه مسعود يرى رأيه ويسير سيرته في كل شيء: جهلٌ بالقراءة والكتاب، ومفاخرة بهذا الجهل، وبراعة في التجارة وتزيدٌ في هذه البراعة، وانصراف عن الشر ما وسعه الانصراف عن الشر، وإيثار للخير والمعروف ما أطاق إيثار الخير والمعروف.

ولكن الله أتاح لمسعود ما لم يتح للحاج عمران، فوصل أسبابه بأسباب الشيخ حين ارتحل الشيخ لأداء حجته الأولى، فكان مسعود ممن سافروا مع الشيخ وأدوا معه الفريضة، وقد ألقى الله في نفسه حب الشيخ، فكان يلزمه أثناء السفر ويتطوع لخدمته، يضايق بذلك خاصة الشيخ وأصفياءه، ولكن الشيخ كان يرضى ذلك منه ويشكره له، ويسأل عنه إذا غاب، ويستدنيه إذا حضر، فإذا عادت القافلة إلى وطنها كان الحاج مسعود من خاصة الشيخ والممتازين بين ذوي مودته، ومنذ ذلك الوقت لم يُفارق الحاج مسعود شيخه في سفر ولا في إقامة، ولم يتخلف عن مجلس من مجالسه، ولم يتعمد التخلف عن الصلاة التي كان يقيمها الشيخ، إنما كان يُكره على ذلك إكراهًا في بعض الأحيان، فيؤدي الصلاة كما يستطيع وفي نفسه شيء من حزن؛ لأنه لم يؤدِّها مع الشيخ، وكان الله قد منحه ذاكرةً قوية رائعةً، فلم يكن يسمع شيئًا إلا حفظه، ولم يكن يتحدث إليه بشيء إلا وعاه، وهو من أجل ذلك قد حفظ القرآن كله لكثرة ما كان يستمع لتلاوة القرآن، وحفظ كثيرًا من الحديث لكثرة ما كان يستمع إلى الشيخ وهو يروي الحديث، وحفظ كل ما كان الشيخ يبتهل به إلى ربه من دعاء، بل حفظ أكثر من ذلك: حفظ أطرافًا من علوم الدين ومن الفقه والتصوف والكلام خاصة، لكثرة ما سمع الشيخ يتحدث في هذه الألوان من العلم إلى الذين كانوا يفِدُون عليه ويقيمون عنده من علماء